# الانهيار السياسي والاقتصادي والتفكك الاجتماعي للأندلس في عهد ملوك الطوائف

**د. الربعي بن سلامة**

**أ. محاضر بجامعة قسنطينة**

توحي بعض الدراسات التي تناولت التاريخ الأدبي للأندلس بأن حياة المجتمع الأندلسي كانت حياة رغد ورخاء، وبأن الأندلسيين كانوا يتمتعون بكثير من مقومات الحياة السعيدة، فالأندلس مشهورة بجمال طبيعتها، وكثرة مياهها، وخصوبة أراضيها، ووفرة خيراتها المادية التي لا تنقطع. ويستعرض الدارسون- لإبراز جوانب هذه الحياة السعيدة- بعض ما أورده القدماء من أوصاف لمجالس الأنس والطرب التي كانت تحتضنها الطبيعة الأندلسية الخلابة، وينوّهون بما كان ينشد فيها من الأشعار والموشحات المصحوبة بأعذب الأنغام وأطرب الألحان(١).

وإذا كانت هذه الصورة تمثل الجانب المشرق من حياة الأندلسيين، في بعض الأحيان، فإنها، دون شك، لا تمثل حياة كل الأندلسيين، ولا تصدق على جميع مراحل تاريخهم، لأن حياتهم لم تكن كلها حياة سهلة ميسورة، ولم تكن الأندلس كلّها مسرحا لمجالس اللهو والطرب، وإنّما عرف الأندلسيون الكثير من الشدائد، واحتضنت ربوع الأندلس الكثير من المآسي أيضا.

(١) الركابي، جودت. في الأدب الأندلسي. ط ٤ . القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧٥ م. ص ص ١٣٠- ١٣٥.

وإذا كنّا لا نستطيع أن نتناول، في مثل هذه المناسبة، كل الشدائد والمحن التي عرفها الأندلسيون، فإننا سنحاول في هذه الدراسة الموجزة أن نسلّط بعض الضوء على واحدة من تلك المراحل الصعبة التي عاشها الأندلسيون، لنرى كيف تدهورت حياتهم السياسية والاقتصادية، بعد أن فقدت الأندلس وحدتها، ودخلت ما يسمى بعصر ملوك الطوائف، الذي تم فيه تفكيك المجتمع الأندلسي وتأهيله للسقوط.

شرع المسلمون في إرساء دعائم الدولة المدنية الإسلامية في الأندلس، مباشرة، بعد أن انتهوا من عملية الفتح سنة ٩٣/ ٧١١ . ومنذ ذلك التاريخ والبناء الحضاري للدولة العربية الإسلامية في الأندلس ينمو ويتعاظم في جميع مجالات الحياة المدنية والعسكرية، إلى أن بلغ أوج قوته في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر، الذي استطاع أن يخمد الفتن الداخلية، كما استطاع أن يوفر الكثير من الأمن والاستقرار اللذين نعمت بهما الأندلس أثناء حياته، وبعد وفاته، في عهد ولده وخليفته الحكم المستنصر. و لم يكتف المستنصر بالمحافظة على ما حققه والده من منجزات حضارية، وإنما عمل على تنميتها في الكثير من المجالات. وقد ظهر ذلك بوضوح في المجالات العلمية والثقافية التي بلغت في عهده عصرها الذهبي. واستمرت الدولة قوية، بعد وفاته، و لم يظهر ضعفها إلاّ في أواخر عهد ولده وخليفته هشام المؤيد الذي كان رجلا ضعيفا، سيطر على أمور الدولة في عهده وزيره الحاجب المنصور، الذي استطاع أن يحافظ على استمرار هيبة الدولة ووحدتها، بفضل محافظته على قوتها العسكرية، وتنمية قدراتها القتالية التي استمرت فعاليتها إلى آخر أيام ولده وخليفته في الحجابة عبد الملك المظفر الذي انتهت بانتهاء أيامه قوّة الدولة وهيبتها سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩م، وانتهى معها عهد الأمن والاستقرار، وانحدرت الأندلس بعدها إلى دوامة الفتنة التي لم تخرج منها إلاّ بعد أن فقدت وحدتها السياسية، واختلت موازنها الاقتصادية اختلالا كبيرا.

وإذا كان من العادة أن تتأثر السياسة بالاقتصاد، فتقوى بقوته وتضعف بضعفه، فإن عهد ملوك الطوائف لم يلتزم بهذه العادة، وإنما خرج عنها، حينما أفلتت السياسة من سلطة الاقتصاد، وأصبحت موجهة لمساره، وقد يتضح

الأمر أكثر إذا حاولنا أن نتتبّع المسار السياسي للأندلس- في القرن ١١/٥- لنرى أنه لم يكتف بتخريب الحياة الاقتصادية للأندلسيين فقط، وإنما تجاوز ذلك ليسهم في تفكيك المجتمع الأندلسي أيضا.

**أولا: الانهيار السياسي**

إذا كنّا قد رأينا المجتمع الأندلسي وهو ينعم بنوع من الأمن والاستقرار في عهد الناصر والمستنصر والمنصور، فإنه لم يكد ينتهي عصر هؤلاء العظماء حتى انحدر بسرعة إلى دوامة الفتنة التي اشتعلت نيرانها سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩م بين أمراء البيت الأموي، حيث اشتد التناحر بينهم على كرسي الخلافة، و لم يتورّع بعضهم عن الاستعانة بالأمراء النصارى للوصول إلى هدفه، حيث استنجد سليمان المستعين بالكونت سانشو غرسية القشتالي[١] كما استنجد محمد المهدي بأميري ورجلة وبرشلونة[٢]. وكانوا في كل مرّة يتنازلون لهم عن عدد من أقاليم الدّولة وحصونها، فضلا عن الغنائم والأسلاب التي تعود بها جيوشهم، كلما تدخلت لنصرة أحد الطرفين المتنازعين.

وحينما بدأت رياح الفتنة تعصف بقرطبة بدأ حكام الأقاليم يستقلون بمدنهم، لينشئوا لأنفسهم دويلات مستقلّة. و لم تخرج قرطبة من فتنتها سنة ٤٢٢/ ١٠٣٠حتى كانت الأندلس قد فقدت وحدتها السياسية، وتمزقت دولتها العتيدة، لتتناثر أشلاؤها في هيئة دويلات ملوك الطوائف التي بلغ عددها حوالي عشرين دولة[٣]، وتجاوزه عند بعضهم ليقترب من الثلاثين[٤].

وقد كان التناحر بين ملوك هذه الدويلات قائماً على أشدّه بسبب المخاوف التي كانت تملأ نفوسهم، والأطماع التوسّعية التي كانت تسيطر على عقولهم الضعيفة، فكانوا يلجؤون إلى التحالف مع الأمراء المسيحيين

(١) هو سانشو بن غرسية بن فرذلند- المشهور بابن مامه دونا- حكم بين سنتي (٣٨٥- ٤٠٨/ ٩٩٥- ١٠١٧).

(2)ALBORNOZ, Claudio Sanchez- L'Espagne Musulmane – OPU/Publication, 1985, pp. 358- 399.

(٣) عنان، عبد الله، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي- ط٣ – القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، ص ص ٤٦٠- ٤٦٤.

(٤) مكي، الطاهر أحمد، دراسات أندلسية. ط٣، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨٧م. ص ٥١.

للمحافظة على عروشهم، أو لتحقيق بعض أطماعهم التوسيعة، كما فعل بنو عبّاد مع جيرانهم، ومنهم بنو زيري ملوك غرناطة[1].

ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على نوعية العلاقات السياسية التي كانت متبادلة بين تلك الدويلات وبين جيرانها النصارى، لتتضح أمامنا معالم الانهيار السياسي الذي أصيبت به الأندلس الإسلامية، بعد أن فقدت وحدتها في مطلع القرن ١١/٥. ونظرا إلى تشعب تلك العلاقات وسعتها، فإننا سنكتفي بالتوقف عند بعض علاقات المعتمد بن عبّاد- أشهر ملوك الطوائف وأقواهم آنذاك- لأنه في رأينا نموذج يمكن أن يقاس عليه بقيّة ملوك الطوائف.

قام المعتمد بن عباد بالإغارة على مملكة غرناطة واستولى على مدينة جيّان التابعة لها سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م، فرد عليه عبد الله بن بلقين، صاحب غرناطة، بعقد معاهدة مع ألفونسو السادس[2] التزم فيها بدفع الجزية على أن يحميه ألفونسو من دولة بني عبّاد، لكن المعتمد لم يسكت، وإنما أبطل معاهدة ابن بلقين بعقد معاهدة دفع بموجبها لألفونسو خمسين ألف ( ٥٠,٠٠٠) دينار، ليتعاون معه على فتح غرناطة، على أن تكون المدينة ذاتها للمعتمد، وأن تكون أموالها وذخائرها لألفونسو. وعلى الرغم من فشل محاولة الاستيلاء على غرناطة، فقد ظهرت آثار هذه المعاهدة في محاصرتها وتخريب بسائطها [3].

وعقدت بين المعتمد وألفونسو معاهدة أخرى، تعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون المعتمد بالجند المرتزقة، ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين، ويتعهد ابن عباد- مقابل ذلك- بأن يردي إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وألا يتعرض على مشروعه في الاستيلاء على طليلة[4].

(١) ينظر: العربي، إسماعيل. دولة بني زيري ملوك غرناطة. ط الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢، ص ص ٥٧- ٨٠ و ١٤٧- ١٧٠ .

(٢) هو ألفونسو بن فرناندو الأوّل، عيّن على رأس مملكة ليون سنة ٤٥٧/ ١٠٦٤، ثم توسعت مملكته، بالاستيلاء على مملكتي أخويه قبل وفاته سنة ٥٠٣/ ١١٠٩.

(٣) عنان، دولة الطوائف، ص ٦٣.

(٤) نفسه، ص ١٠٩.

وتعاقد المعتمد أيضا مع رامون برنجير البرشلوني[1] ليعاونه على فتح مرسية على أن يدفع له المعتمد عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) مثقال من الذهب[2].

وبعد أن أزاح المرابطون فيم ألفونسو السّادس عن الأندلسيين في معركة الزلاقة[3] وشعر ملوك الطوائف بشيء من الأمن، بدؤوا يتآمرون ضد المرابطين، ولما تغطّن يوسف بن تاشفين لمؤامراتهم وقرّر الإطاحة بعروشهم، استنجد المعتد بعدوّه الصديق ألفونسو السّادس، الذي هبّ لإنقاذ عرش إشبيلية ولكنّه وصل بعد فوات الأوان[4].

وإذا كانت تلك هي حال العلاقات السياسية لأشهر ملوك الطوائف وأقواهم وأقدرهم على حماية نفسه، فإنّنا لا نشكّ في أن حال العلاقات السياسية لبقية ملوك الطوائف كانت أسوأ ممّا هي عليه عند المعتمد، وأكثر منها تردّيا وانحطاطا.

وبإلقاء نظرة على ما استعرضناه من معاهدات أو تحالفات المعتمد بن عباد، يتضح لنا أن المعاملات السياسية، في أندلس ملوك الطوائف، كانت في معظمها- إن لم نقل كلها- لصالح إسبانيا النصرانية، على حساب الأندلس الإسلامية، بحيث لا نكاد نعثر، فيما استعرضناه من معاهدات، أو في معاهدات بقية ملوك الطوائف آنذاك، على ما يفيد الأندلس الإسلامية في شيء، بل لا نجد معاهدة أو تحالفا إلاّ ولها فيه ضرر جسيم. و لم يتوقّف هذا الضرر عند التهام بعض أقاليم الدّولة الإسلاميّة، وإنما تجاوزه ليعمل على تحطيم اقتصادياتها، تمهيدا لإضعافها وإسقاطها.

**ثانيا: الانهيار الاقتصادي**

(١) هو رامون برنجير الثاني بن الكونت رامون برنجير الكبير، حكم إمارة برشلونة مع أخيه بين سنتي ٤٠٩/ ١٠٧٦ و ٤٧٥/ ١٠٨٢حيث توفي لينفرد بحكمها أخوه.

(٢) ابن الأبّار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس. ط ١ . القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣، جـ٢.ص ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) هي المعركة المشهورة التي وقعت سنة ٤٧٩/ ١٠٨٦ بين المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين والتحالف المسيحي بقيادة ألفونسو السادس.

(٤)بالنثيا- إنخل غنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس ط١. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥. ص ١٠٠.

يرى كثير من الكتّاب والباحثين في الأدب الأندلسي أن عصر ملوك الطوائف- على الرّغم مما ساده من تمزّق سياسي- كان من أزهى العصور الأندلسية وأخصبها في ميادين الثقافة والأدب، بل يرجعون السرّ في ازدهار الأدب إلى ذلك التنافس الذي كان قائماً بين ملوك الطوائف على استقطاب رجالات الفكر والأدب[1] .

وإذا كان الأدب قد ازدهر، في ظلّ هذا التمزق والانحطاط السياسي، فإنّ اقتصاديات الأندلس الإسلامية لم يكن أمامها، في ظلّ تلك الأوضاع المتردية، إلاّ أن تنهار وتنهار باستمرار، فقد كانت الحروب الدائمة تقضي على الاستقرار الاجتماعي اللازم لأيّ نشاط اقتصادي مفيد، فضلا عن أعمال التخريب والسلب التي كانت تمارسها الجيوش بشكل مستمر، ويضاف إلى هذا، الضرائب المرهقة التي كان ملوك الطوائف يفرضونها على رعاياهم، بسببه الجزية التي كانوا ملزمين بدفعها إلى ملوك النصارى، وأعطيات الجيوش التي كانوا مضطرين إليها للمحافظة على عروشهم، وأخيرا نفقاتهم على متعهم المتزايدة، التي كان من بينها، بناء القصور الفخمة وتزيينها بما يناسبها من فاخر الرياش، واقتناء ما يليق بها من الغلمان والجواري الحسان، وغير ذلك ممّا تستلزمه حياة البذخ.

لقد كان أغلب ملوك الطوائف يدفعون الجزية السنوية لملوك إسبانيا النصرانيّة[2] وأمرائها، ويدفعون مبالغ إضافية، أحياناً، فقد سبق أن رأينا المعتمد ابن عبّاد وهو يدفع خمسين ألف دينار لألفونسو السادس ليساعده على فتح غرناطة. ورأيناه أيضاً وهو يدفع عشرة آلاف مثقال من الذهب لرامون برنجير، ليعاونه على فتح مرسية.

أمّا المؤتمن بن المقتدر بن هود- صاحب سرقسطة- فقد دفع لملك قشتالة مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) دينار ليعاونه على فتح بلنسية[3].

(١) ينظر على سبيل المثال :

أ- شلبي، إسماعيل، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر. ص ص ٢١٩- ٢٣٥.

ب- لجنة من الأساتذة. الوجيز في الأدب العربي وتاريخه- الأدب في الأندلس والمغرب- ص ص ١٢/ ١٣.

(٢) عنان، دول الطوائف، ص ٧٤.

(٣) عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٦.

ويبدو أن الجزية كانت تختلف من مملكة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر، حيث كان المظفر بن الأفطس يدفع افرناندو الجليقي[١] جزية سنوية قدرها خمسة آلاف ( ٥٠٠٠) دينار[٢]. وكان عبد الله بن بلقين يدفع لألفونسو السادس جزية سنوية قدرها عشرون ألف (٢٠,٠٠٠) دينار[٣].

وفي سنة ٤٨٢/ ١٠٨٩ دفع عبد الملك بن هذيل، صاحب السهلة، للسيد الكمبيطور[٤] جزية سنوية قدرها عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) دينار، على الرغم من صغر مساحة إمارته[٥].

وفي السنة نفسها دفع عبد الله بن قاسم، صاحب إمارة البونت، للكمبيطور أيضا جزية قدرها عشرة آلاف ( ١٠,٠٠٠) دينار، على الرغم من أن إمارته لم تكن تتجاوز حصن البونت وضواحيه[٦].

وفيها أيضا دفع ابن لبون، صاحب حصن مربيطر للكمبيطور جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف (٠٠٠ ٨ ) دينار[٧].

وبالإضافة إلى الجزية التي كانت معلومة المقدار، فهناك طرق أخرى لاستتراف ثروات الأندلس الإسلامية لصالح إسبانيا النصرانية، كالهدايا التي كان ملوك الطوائف يقدمونها لملوك النصارى، في مناسبات وأشكال مختلفة. ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن عذاري عن استعانة سليمان بن هود بالنصارى وتوظيفهم لتخريب دولة جاره المسلم يحي بن ذي النون، حيث قال: «فراسل ابن هود فرذلند الطاغية، وبعث إليه بأموال جمة وهدايا جليلة، وسأله الخروج إلى بلد ابن ذي النّون بجيشه، فخرج بعدد عظيم إلى ثغر طليطلة، فأفنى حماته ورجاله وعاث في بلادهم.. فذهبت

(١) هو فرناندو الأوّل بن سانشو الكبير الذي ورث مملكة قشتالة عن طريق زوجته، وعين على رأسها ولده فرناندو باسم فرناندو الأوّل، وهو الذي بدأ حرب الاسترداد ضد العرب، وتوفي سنة ٤٤٨/ ١٠٥٦.

(٢) ابن عذاري، المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق: ليفي بروفنسال، بيروت» دار الثقافة، جـ ٣، ص ٢٣٨.

(٣) عنان، دول الطوائف، ص ١٤٣.

(٤) السيد الكمبيطور هو ردريغو دياث دي بيبار الفارس المغامر الشجاع، خدم ملوك المسيحية وملوك الطوائف المسلمين. توفي سنة ٤٩٣/ ١٠٩٩.

(٥) عنان: المرجع السابق. ص ٢٥٧.

(٦) نفسه، ص ٢٦١.

(٧)ابن عذاري: المرجع السابق . ص ١٦٢.

أكثر أموال أهل طليطلة بتكرّر الغارات عليهم، وفشت جوائحهم، وجلا كثير من أهلها ضياعهم وأطرافهم إلى قاعدتهم»[١]

ومن ذلك أيضا ما أورده ابن بسّام، بمناسبة حديثه عن وفد أهل طليطلة الذي ذهب ليفاوض ألفونسو السّادس في رفع الحصار الذي ضربه حول مدينتهم سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥، حيث ادّعى الوفد بأنّه ينتظر مساعدة من ملوك الأندلس، وما زعم الوفد ذلك إلا ليعزز موقفه في المفاوضات، ولكن ألفونسو ردّ عليهم بدعوة رسل ملوك الطوائف الذين جاءوا ليقدّموا فروض الطاعة والولاء، نيابة عن ملوكهم، فحضر الرسل «وأحضروا بين يديه كلّ ذخيرة خطيرة.. و لم يبق ملك من ملوك الطوائف إلاّ أحضر يومئذ رسله، وكانت حاله حال من كان قبله...» [٢].

ويمكن أن نتصوّر ضخامة هذه المبالغ إذا عرفنا أن الأجير الأندلسي، في القرن الخامس الهجري، لكي يحصل على دينار واحد، كان عليه أن يعمل عشرة أيام كاملة[٣].

ومما يدل على ضخامة مبالغ الجزية وأهميتها في خزائن ممالك إسبانيا النصرانيّة، ذلك التصرف الذي قام به فرناندو الأوّل قبيل وفاته، حيث لم يكتف بتقسيم مملكته بين أولاده الثلاثة، وإنما عيّن لكل واحد منهم، أيضا، المنطقة الإسلامية التي تدفع له الجزية[٤].

و لم يتوقف الأمر عند الجزية والمبالغ الإضافية، بل تجازوها إلى المحاصيل الزراعية، فقد أخبرنا ابن عذاري أنّ المأمون بن ذي النّون استعدى فرناندو القشتالي على خصمه سليمان بن هود، فحاصرت قواته سرقسطة، وعاثت في

(١) ابن عذاري: المرجع المذكور. ٢٧٩/٣، ٢٨٠.

(٢) ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس. ط ١.- ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٩م. ق ٤، م ١، ص ١٦٦

(3)KHALIS, Salah. La vie litteraire a Seville, au Xeme siècle, Alger;S.N.E.D 1966, P. 22

(٤) عنان: المرجع المذكور. ص ٣٨٦.

ضواحيها سنة ٤٣٧/ ١٠٤٥، وكان ذلك أوان الصيف والزّرع على وشك الحصاد، فأقامت قواته حتّى حصدت كل أقوات سرقسطة، ودرستها ونقلتها إلى بلادها(١).

و لم تكن تلك هي الحالة الوحيدة التي تحرم فيها منطقة إسلامية من أقواتها، وإنما تكرّرت العمليّة على يد السيد الكمبيطور سنة ٤٨٢/ ١٠٨٩ حيث عسكرت قواته بأراضي السهلة وجمعت الكثير من محاصيلها وأقواتها(٢).

وأمّا حملات تخريب المحاصيل الزراعية وإتلافها بالحرق والقطع، فقد كانت من النشاطات العسكرية العادية لملوك الطوائف، ومنها على سبيل المثال تلك الحملات المخربة التي كان المعتضد بن عباد يشنها على جيرانه من ملوك الطوائف لإضعافهم والاستيلاء على دولهم، حيث نراه وهو يغير على دولة جاره مناد بن محمد الدمري «يحرق قراه»(٣) ونراه وهو يشن على جاره محمد ابن يحيى اليحصبي، صاحب لبلة، حملة «خرّبت [فيها] القرى وأحرقت الزرع والمنازل» (٤). كما نراه وهو يوالي الحرب على جاره ابن الأفطس في شهور سنة ٤٤٢/ ١٠٥١ التي فتح فيها عدّة حصون «ودمّر عمارات واسعة وأفسد غلاتها وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة»(٥). وهذه الحملات، في الحقيقة، أكثر من أن تحصى، وأوضح من أن يمثل لها.

وهكذا تضافرت على تخريب الاقتصاد الأندلسي، في عهد ملوك الطوائف، عوامل شتى، يأتي على رأسها العامل السياسي الذي تحوّل بموجبه ملوك الطوائف إلى قنوات لتصريف ثروات الأندلس الإسلامية نحو إسبانيا النصرانية، دون مقابل، كما تحوّلوا إلى أدوات لتمكين الجيوش النصرانيّة- التي كان بعضهم يستعين بها على بعض- من تخريب ونهب ما بقي من تلك الثروات. وفضلا عن ذلك، كان جوّ الرّعب الذي أشاعه هؤلاء الملوك بكثرة

(١) ابن عذاري: المرجع السابق. ص ٣/ ٢٧٨.

(٢) عنان: دول الطائف. ص ٢٥٧.

(٣) ابن عذاري: المرجع السابق. ص ٣/ ٢٩٦.

(٤) نفسه، ص ٢١١.

(٥) نفسه، ص ٢١١.

حروبهم كافيا للقضاء على الاستقرار الضروري لنجاح أي استثمار اقتصادي، ويضاف إلى كلّ هذا تلك الضرائب المجحفة التي امتصت معظم ثروات الطبقة الوسطى وأدّت إلي انعدام كلّ مظاهر العدل في توزيع ما بقي من ثروات الأمّة، وهو ما أدّى إلى تفكك الأندلس اجتماعيّا بعد أن تمزّقت سياسيّا وانهارت اقتصاديّا.

**ثالثا: التفكك الاجتماعي**

كان التفكك الاجتماعي نتيجة طبيعية للانهيار السياسي والاقتصادي للأندلس الإسلامية، وقد تمّ هذا التفكك- في تقديرنا- خلال مرحلتين وعلى مستويين، حيث تفكّك المجتمع الأندلسي الكبير، في المرحلة الأولى، سياسياً بسبب تنوع العناصر المكوّنة له، واختلاف انتماءاتها العرقية ومشاربها الثقافية، فانقسم إلى دويلات بعضها عربي، وبعضها بربري، وبعضها صقلبي أو مولدي.

و لم يقف التفكك عند هذه المرحلة أو هذا المستوى وإنما تبعه، في مرحلة ثانية، نوع آخر من التفكّك نتج عن الانهيار الاقتصادي وضياع ثروات الأندلس الإسلامية، كما رأينا، حيث أدى عدم كفاية ما بقي من ثروات- لسدّ حاجيات المجتمع الأندلسي في عهد ملوك الطوائف- إلى استفحال الفوارق بين الفئات الاجتماعية، ونما لدى الأندلسيين الشعور بالظلم الاجتماعي، وقضى على التضامن بين طبقات المجتمع الأندلسي، وأهل الأندلس للسقوط، إن لم يكن في يد يوسف بن تاشفين، ففي يد ألفونسو السادس.

وقد أسهم ملوك الطوائف، بتصرفاتهم، في دفع المجتمع الأندلسي إلى هذه النتيجة، لأنهم كانوا بعد أن يؤدوا الجزية السنوية والهدايا لملوك النصارى يعودون لإنفاق ما تبقى من ثروات الأندلس الإسلامية، في توسيع ممتلكاتهم، ودفع أعطيات الجيوش اللازمة لإضفاء الشرعية على عروشهم، في أعين رعاياهم، ثم يتفرغون بعد ذلك لترواتهم، فيبنون القصور الفخمة، ويجهزونها بالتحف النادرة، ويقتنون لها الجواري والغلمان، حتى تصبح قادرة على بعث البهجة والسرور، وجديرة باحتضان مجالس الأنس والطرب.

وقد تتبع ابن الأبّار بعض ملوك الطوائف، وأعطانا فكرة عن ثرواتهم فقال عن أبي بكر أحمد بن طاهر، صاحب مرسية «ثم اتسعت مكاسبه حتى صار نصف بلده ضيعة له..» [1].

أما إسماعيل بن عبّاد، صاحب إشبيلية، فقد «كان أيسر من بالأندلس وقته...[وكان يملك]... ثلث إشبيلية ضيعة وغلة»[2]

وأمّا أبو الحزم بن جهور، صاحب قرطبة، فقد «تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عينه على أغنى منه»[3].

وعادة ما يكون هذا الثراء مصحوبا بحياة البذخ، ومن ذلك ما يروى عن المعتمد بن عباد الذي تمنت زوجته «الرميكية» أن تسير في الطين برجليها كما رأت الناس يفعلون، فأمر بأن يذرّ لها في رحبة القصر، الكافور والطيوب، وأن تعجن بماء الورد حتى صارت كالطين، وخاضت فيه مع جواريها[4]، ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن الأبار من أن المعتمد بن عبّاد كان يملك ثمانمئة (٨٠٠) جارية حينما خلعه المرابطون عن عرش إشبيلية[5]. وليس معنى هذا أن الأندلس كانت تعيش رخاء اقتصاديا، أو كانت كلها تتمايل مع أنغام الموشحات، في مجالس اللهو والطرب، كما قد توحي بذلك بعض أشعار العصر، أو أقوال بعض الدارسين[6]، وإنما كان في عهد ملوك الطوائف جهات في الأندلس تعاني «المجاعة الطويلة» كما وقع لأهل بطليوس حينما اجتاحهم المعتضد بن عباد وأتلف غلاتهم، بل أكثر من هذا، فقد كان في عهد ملوك الطوائف- على ما فيه من بذخ- فئة من الأندلسيين لا تجد ما يسد حاجتها من المأكل

(١) ابن الآبار: الحلة السيراء. ٢/١١٧.

(٢) نفسه، ٢/ ٢١، ٣٦، ٣٧.

(٣) نفسه، ٢/ ٣١.

(٤) المقري، أحمد بن محمّد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م، م١ ص ٢٧٢.

(٥) ابن الأبار: المرجع المذكور، ٢/ ٥٥.

(٦) أبو خليل ، شوقي: مصرع غرناطة، ط٢، دمشق «دار الفكر، ١٩٨١م. ص ١٢٠.

والملبس، ومنهم رعايا بلنسية الذين أثقلتهم الضرائب الجائرة، وأكلت كلّ أموالهم «حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش»(١).

وإذا كان ذلك هو بعض الواقع السياسي والاقتصادي الذي عاشه الأندلسيون، في عهد ملوك الطوائف، فإن مسألة السبب أو الأسباب التي انتجت هذا الواقع تظل من الأمور التي تصعب الإحاطة بها أو الإجابة عنها، في مثل هذه المناسبة. ولذلك فإننا سنكتفي فيها بإيراد رأيين لرجلين عاصراً تلك الأحداث وحاولا تفسيرها، وهما: الفقيه ابن حزم، والمؤرخ ابن حيّان:

أمّا ابن حزم فيقول متحدّثا عن تردّي أوضاع الأندلس في عصره: «وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أوّلها على آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد، والذي ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارّهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على شوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرّم الله... فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفسّاق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السّباع، المزيفون لأهل الشر شرّهم، الناصرون لهم على فسقهم...»(٢).

وأمّا ابن حيان فقد كتب واصفاً حال الأندلس، بعد فاجعة سقوط مدينة بريشتر في أيدي النورمانديين سنة ٤٥٦/ ١٠٦٣، فقال: «و لم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالملح فيهم، الأمراء والفقهاء، قل ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يردؤون، فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين بما لا كفاية له، ولا تخلّص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق، زيادا عن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب. ٣/ ١٦٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي: الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. تحقيق: إحسان عباس . القاهرة: دار العروبة، ١٩٦٦، ص ص ١٧٣، ١٧٤ .

الجماعة، وجريا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ بالتقية في صرفهم، وأولئك هم الأقلون فيهم، فما أقول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها؟ هل هي إلاّ مشفية على بوارها واستئصالها...؟»[1].

وإذا كان ابن حزم وابن حيان يتفقان على أن السبب في انهيار الأندلس- في عهد ملوك الطوائف- يعود إلى انحراف الأمراء والفقهاء، الناتج عن فساد أخلاق رجال الإشارات، فانفرد ابن حزم بالإشارة إلى الجانب الاقتصادي أو المالي، واعتبر انهياره تابعا لانهيار الجانب السياسي، كما تميز عن صاحبه بوضوح صرامته وموقفهم من الأمراء والفقهاء، فكل أمير عنده «محارب لله تعالى وساع في الأرض بفساد» أمّا الفقهاء عنده، فهم ذئاب في شكل خراف، وفساق منتسبون إلى الفقه، ليزيفوا لأهل الشرّ شرّهم، ولينصروهم على فسقهم.

أمّا ابن حيان فقد تفرّد بالإشارة إلى السياسة التفريقية لملوك الطوائف، وتنبأ بما ستؤول إليه الأندلس، بعد أن انهارت اقتصاديا وسياسيا، وتفككت اجتماعيا، حينما اعتبرها «مشفية على بوارها واستئصالها».

ولكن اتفاقهما على إدانة الفقهاء، لا يعني أن كل فقهاء الأندلس- في عهد ملوك الطوائف- قد أفتوا بجواز اعتداء بعض الملوك على رعية بعضهم، أو أفتوا بجواز استعانة ملوكهم- بعضهم على بعض- بملوك النصارى، أو وافقوهم على نقل ثروات الأندلس الإسلامية، وتحويلها إلى إسبانيا النصرانية بطرق ووسائل مختلفة، وإنما اعترض بعضهم صراحة، كابن حزم وابن حيان، وغلب بعضهم على أمره فسكت تقية أو دفعا للفتنة التي قد تكون أشد من القتل.

***

وإذا كانت تلك هي الحدود التقريبية لمسؤولية الفقهاء عمّا آلت إليه الأندلس، في عهد ملوك الطوائف، فإلى أي مدى يمكن أن تمتد مسؤولية ملوك الطوائف أنفسهم؟

(١) ابن حيان، القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق: محمود علي مكي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣. التمهيد . ص ١٢٠

على الرغم من عدم شمولية الوقائع التي استعرضناها لكل تصرفات ملوك الطوائف، في القرن ٥/ ١١، وعلى الرغم من نسبيّة النتائج التي يمكن أن نستخلصها منها، فإنّنا لا نستطيع أن ننفي المسؤولية المباشرة لهؤلاء الملوك عما آلت إليه الأندلس في عصرهم. ولكن قد لا يكون من الإنصاف لملوك الطوائف أن نحملهم المسؤولية عن كل ما آلت إليه الأندلس من انهيار سياسي واقتصادي، وتفكك اجتماعي، لأن هذه الانهيارات- وإن كانت قد ظهرت في عصرهم- لم تكن كلها من إنتاجهم، وإنما هي- في كثير منها- تراكمات تاريخية أسهمت في تكوينها عوامل يصعب حصرها، أو الإحاطة بها، في مثل هذه المناسبة، ومع ذلك يمكن إجمال أهمها في ثلاثة هي:

**١ـ طبيعة المجتمع الأندلسي:** كان المجتمع الأندلسي بتركيبته المعقدة يحمل بذرة تفككه، حيث كان يتكون من عناصر متعددة الانتماءات العرقية والثقافية، ومختلفة المعتقدات. ولا شك أن عدم التجانس بين هذه العناصر يأتي على رأس العوامل التي أهلت المجتمع الأندلسي للتفكك، وأسهمت في ضياع الأندلس بعد ذلك.

**٢ـ ضعف الوازع الديني في عهد ملوك الطوائف:** كان حكام بني أمية، قبل هذا العهد، يحرصون على إبقاء الوازع الديني قويا في نفوس الأندلسيين، لأنهم كانوا يدركون أن عناصر المجتمع الأندلسي المتعددة لا يمكن اجتماعها أو جمعها سياسيا- لمواجهة الخطر المسيحي في الشمال- إلا بالوازع الديني، الذي كان يمثل القاسم المشترك بين معظم سكان الأندلس آنذاك، ويظهر ذلك بوضوح في حملات الجهاد التي كان الأمويون يحرصون على تعبئتها في الصوائف والشواتي من كل سنة.

و لم تكن سياسة ملوك الطوائف- بطبيعتها التفريقية التجزيئية- تسمح لهم بتوظيفه هذا العامل، بل- على العكس من ذلك- حاولوا إضعافه وحرصوا على استبعاده من معاملاتهم السياسية، وبذلك كرسوا فكرة التفتيت التي كانت موجودة، أصلا، في تركيبة المجتمع الأندلسي.

**٣ــ** ويضاف إلى هذين العاملين الداخليين عامل خارجي، تمثل في ظهور فكرة الصليبية التي ساعدت على توحيد الإمارات المسيحية في الشمال، وأشعرتها بمسؤوليتها التاريخية، كما ضمنت لها مساندة البابا ومساعدة بعض الدول الأوربية، إن لم يكن على المستوى الرسمي فعلى المستوى الشعبي، ولكن هذه الإمارات لم تزد، في الحقيقة، على أن استغلت قابلية المجتمع الأندلسي للانهيار الذاتي، وانتهزت فرصة تفككه في عهد ملوك الطوائف لتجهز عليه- عبر مراحل تاريخية متتابعة- فيما عرف بحروب الاسترداد التي يعد عهد ملوك الطوائف بداية لها.